# عمر المختار

# 1931 - 1861

يذكرنا الحدث الليبي، المتمثل بالثورة الشعبية وبانتصارها في إسقاط نظام الإستبداد الذي دام اثنين وأربعين عاماً، بعمر المختار الثائر الليبي الأول في مطالع القرن العشرين. لم ينسه الليبيون ولم ينسه العرب. بل هم كانوا يستحضرون شخصيته ونضاله وبطولاته في صيغ متعددة. وكان الفيلم الذي حمل اسمه وتمحور حول سيرته واحداً من أكثر تلك الصيغ وفاءاً له وتقديراً لدوره التاريخي ليبياً وعربياً. وهو الفيلم الذي أخرجه الفنان السوري مصطفى العقاد.

برز اسم عمر المختار بالتدريج في الفترة التي اجتاحت فيها الجيوش الإيطالية السواحل الليبية في طرابلس وبرقة. كان ذلك في عام 1911. جاء ذلك العدوان مفاجئاً بعد إنذار وجهته الحكومة الإيطالية إلى الحكومة العثمانية من دون أن تنتظر الجواب الذي جاء متأخراً واعتبر في حينه جواباً ضعيفاً وذليلاً. وكانت لإيطاليا في ذلك التاريخ مطامع توسعية في شواطئ البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بدءاً من الحبشة، من دون أن تقف عند مصر التي كان البريطانيون أسياد الموقف فيها. كان هدف الحكومة الإيطالية في الحبشة وفي ليبيا، في تلك الفترة المضطربة من تاريخ العالم عشية الحرب العالمية الأولى، إبراز دور إيطاليا كدولة عظمى يتجاوز نفوذها حدودها إلى مناطق أخرى في العالم.

انفجرت الحرب الإيطالية – الليبية في الوقت الذي كانت فيه السلطنة العثمانية في مرحلة اضطراب كبير وصراعات في داخلها وفي مناطق سيطرتها الواسعة التي كانت تتقلص بالتدريج بفعل الثورات القومية في أكثر من منطقة. كانت ليبيا في ذلك التاريخ جزءاً من النفوذ العثماني. وكانت السلطة الليبية المحلية قد تكونت في تاريخ سابق من السنوسيين. كان أحمد الشريف هو زعيم السنوسيين في تلك الفترة. وكان مقره في برقه. ومن برقه وجه الدعوة إلى الجهاد ضد الغزو الإيطالي. وشملت الدعوة الليبيين والعرب والمسلمين أينما كانوا. وبدأت الثورة تتسع. وبدأت المعارك تشتد. وبدأ الإيطاليون يرون أن اجتياحهم للمدن الليبية لن يكون نزهة. وإذ احتلوا بسرعة كلاً من طرابلس وطبرق وبنغازي بأنهم سرعان ما بدأوا يواجهون

مقاومة ضارية من المجاهدين. ولم يتأخر عمر المختار في الدخول في المعركة مع المجاهدين دعماً للجيش العثماني الذي كان يخوض معركة ضارية في مقاومة القوات الإيطالية الغازية. وكانت علاقة المختار بالسنوسي وثيقة مع أحمد الشريف أولاً ثم مع ادريس السنوسي عندما تولى زعامة السنوسيين. واستمر المختار في تلك العلاقة على امتداد الحرب الإيطالية الليبية حتى لحظة سجنه وإعدامه بعد عشرين عاماً من الجهاد والكفاح والمقاومة الباسلة في عام 1931.

ولد عمر المختار في عام 1862 في جنزور. وهو ينتمي إلى قبيلة المسنقة. توفي والده وهو في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج بصحبة زوجته والدة عمر. وقبل وفاته أوصى أحد رفاقه بولديه عمر ومحمد. بدأ عمر حياته يتيماً في ظل الفقر والعوز. تابع دراسته في المدارس السنوسية المعروفة بالزوايا. وبدأت علاقته بالسنوسيين منذ ذلك التاريخ. في عام 1895 اصطحبه محمد المهدي السنوسي في انتقاله من جغبوب إلى الكفرة. في عام 1897 عينه المهدي شيخاً لزاوية القصور في الجبل الأخضر بالقرب من المرج. وكانت تقطن في تلك الزاوية وحولها قبيلة العبيد. وهم أناس عرفوا بشدة المراس وقوة الشكيمة. اختاره المهدي شيخاً لتلك الزاوية لكي يهتم بشؤون القبيلة باللين تارة وبالعنف إذا اقتضى الأمر. وحقق المختار ما عقده المهدي على إدارته الحازمة من آمال. وعندما قرر المهدي الإنتقال إلى السودان الغربي كان المختار في طليعة من ذهبوا إلى قرو للإسهام بنصيب وافر في النضال الذي نشب في تلك الفترة بين السنوسية والفرنسيين في المناطق الجنوبية حول واداي. وأقام المختار في قرو مدة من الزمن. ثم عيّنه المهدي شيخاً لزاوية عين كلك. فاستمر المختار في السودان الغربي وقتاً طويلاً نائباً عن المهدي يقوم بتعليم أبناء المسلمين وينشر الإسلام في تلك الأصقاع النائية.

بعد وفاة المهدي في عام 1903 استدعي المختار إلى برقة ليعيّن في العام التالي شيخاً لزاوية القصور مرة أخرى. فبذل جهداً في حكم قبيلة العبيد وإدارة شؤونها حتى سلست له قيادتها. وقد شكرت له الحكومة العثمانية نجاحه في استتباب الأمور في القصور لأن العبيد كانوا من أكبر القبائل عناداً. وكان العثمانيون عاجزين عن إخضاعهم لسلطانهم. وظل الحكام العثمانيون في برقة يلجأون إلى المختار لكي يساعدهم في جمع أموال العشور والضرائب. وبقي في زاوية القصور إلى أن نشبت الحرب الليبية الإيطالية. فكان عمر من أوائل الذين لبوا نداء الجهاد وحملوا لواءه.

كان المختار عند نزول الطليان في بنغازي في عام 1911 في واحة جالو. فخف إلى القصور مسرعاً وخرج مع قوة كبيرة من العبيد إلى مقر الجيش العثماني في الرجمة. واشتبك مع القوات الإيطالية في معارك عدة في بنغازي. ظل يتنقل بين القصور وتكناس إلى الفترة التي تمكنت فيها القوات الإيطالية من احتلال تلك الأماكن. وكان ذلك في عام 1913. كان من ضمنها قيادة المجاهدين في معسكرات جبل العبيد. وعهد إليه إدريس السنوسي بمهمات عدة. واتخذ من منطقة دفنا مجالاً لنشاطه الواسع بين القبائل. وعندما اشترك أحمد الشريف في غزو الحدود المصرية الغربية، ووقعت المصادمات بين العرب والإنجليز، أسهم المختار في تلك العمليات العسكرية، وظل إلى جانب إدريس يتلقى أوامره وينفذها.

في عام 1922 كان المختار من أكثر الذين سعوا لتأليف جبهة متحدة تضم البرقاويين والطرابلسيين من أجل متابعة النضال بنجاح ضد إيطاليا. وعندما قرر إدريس مبارحة برقة عهد إلى عمر المختاربقيادة المجاهدين. فجعل مقره في الجبل الأخضر منذ ذلك الحين إلى حين استشهاده بعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ.

واجهت المختار في المعارك التي خاضها ضد الإيطاليين صعوبات كبيرة قبل أن يتولى قيادة المجاهدين، ويصبح القائد العام للثورة. وكانت بعض تلك الصعوبات تأتي من داخل البلاد، ومن أركان السلطة العثمانية بالذات. وكان بعض منها يعود للذين تولوا قيادة العمليات العسكرية، وبالأخص منهم عزيز المصري. وكان بعض آخر من تلك الصعوبات يتمثل في مواقف القيادة السنوسية التي كانت تضطر لعقد اتفاقات ولاتخاذ مواقف تمليها عليها السلطات العثمانية. جميع تلك الصعوبات لم تغير من صلابة موقف المختار. ولم تثنه عن متابعة الجهاد. ولم تتزعزع ثقته بالقيادة السنوسية. وقد واجه بصلابة وبشجاعة خيانة عزيز المصري الذي كان معروفاً بولائه للإتجاهات الفاشية في أيطاليا وفي ألمانيا. وهي المواقف التي قادته لأن يغادر المعركة من ليبيا إلى مصر ومعه قواته وأسلحتها تلبية لرغبة إيطاليا. ولأن المختار كان شجاعاً ومقداماً، وكان ينطلق في جهاده من إيمانه بأنه كان يدافع عن بلاده ضد قوى أجنبية غازية، ولأنه كان صاجب عقيدة دينية تأسست عنده منذ طفولته وشبابه، ولأنه كان عميق الإنتماء إلى وطنه، فقد وحّد بين العقيدتين الدينية والوطنية، وجعلهما بوصلته في كفاحه وفي جهاده. وعلى قاعدة هذا الإيمان بشقيه استطاع في معاركه العديدة أن يلحق بالإيطاليين الكثير من الخسائر. وكان يفرض عليهم التراجع عن بعض مواقعهم.

استمرت الثورة الليبية خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها من دون توقف. لكنها اشتدت على وجه الخصوص ابتداء من عام 1924 في منطقة الجبل الأخضر. ولمع اسم المختار في تلك المرحلة بالذات كقائد ثوري كبير وشجاع. الأمر الذي جعل القبائل العربية في الجبل الأخضر تنضم إلى صفوف المجاهدين بقيادته، وجعل الأهالي يؤمّنون لإخوانهم المجاهدين ما يحتاجونه من عتاد ومؤن وأسلحة. ويذكر مؤرخو تلك الحقبة من تاريخ الثورة الليبية الكثير من التفاصيل حول المعارك التي خاضها المجاهدون بقيادة المختار، متنقلين من منطقة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى. وهي معارك صمد فيها المجاهدون في وجه الجيوش

الإيطالية الغازية التي كان يزداد عددها وكانت تزداد أنواع أسلحتها. وأدى ذلك التفاوت الكبير في القوى بين المجاهدين وبين القوة العسكرية الإيطالية في عام 1927 إلى قطع السبل بين المجاهدين في الجبل الاخضر وبين برقة وسائر المناطق الليبية. الأمر الذي وضع المختار والمجاهدين في عزلة. وكان موسوليني قد أصبح في ذلك التاريخ زعيم إيطاليا باسم حركته الفاشية. لكن المختار لم ييأس ولم يتراجع ولم يستسلم. بل هو استمر يقاوم بشجاعة مع رفاقه المجاهدين ويوقع في القوى العسكرية الإيطالية الخسائر الكبيرة. استمر في مقاومته في تلك الظروف الصعبة أربعة أعوام بكاملها انتهت باعتقاله في إحدى المعارك. واقتيد إلى المحاكمة في مدينة بنغازي. وجرت محاولة لرشوته. فرفض تلك الرشوة بإباء. وحوكم وحكم عليه بالإعدام. وكالأبطال قابل الحكم بشجاعة وهو يساق إلى المصقلة. وأعدم شنقاً. وحرص الإيطاليون على أن يتم تنفيذ الحكم على المختار أمام حشود ليبية ساقوها بالقسر لكي تشهد مصير قائد الثورة.

تلك هي باختصار سيرة قائد ثوري كبير ناضل بشجاعة وببطولة على امتداد عشرين عاماً دفاعاً عن أرض وطنه في مواجهة الغزو الخارجي، ودفاعاً عن كرامة شعبه، باسم عقيدة جمعت بين الإيمان بدينه والإيمان بوطنه وبشعبه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحرب العالمية الثانية التي انتهت بهزيمة دول المحور بزعامة هتلر وموسوليني قد حررت ليبيا من المستعمرين الإيطاليين ومن الفظاعات التي ارتكبوها بحق الليبيين. وتحولت ليبيا إلى ملكية بقيادة الملك إدريس السنوسي. وظل السنوسيون في السلطة إلى أن قام معمر القذافي بمغامرته في إطاحة الملك إدريس وإقامة الحكم الهجين الذي استمر استبدادياً طاغياً على مدى اثنين وأربعين عاماً. انتهت بانتصار الثورة التي أطاحت ذلك النظام الغاشم وأركانه بتضحيات جسام.

تجدر الإشارة إلى أن للسنوسيين تاريخاً طويلاً في ليبيا يعود إلى القرن الثامن عشر. وصاحب الدعوة السنوسية هو محمد ابن علي السنوسي الذي ولد في عام 1781 في الجزائر.

وأخذ العلم من مدارسها الدينية. ثم انتقل إلى فاس في المغرب ليمارس التدريس في الجامع الكبير. وتابع تجوله في شمال أفريقيا وفي الجزيرة العربية بين مؤيد له ومعارض إلى أن أعلن في مدينة مكة في عام 1837 أول زاوية من الزوايا التي شكلت الدعوة السنوسية من بداياتها حتى نهاياتها. ولم يبق السنوسي في مكة سوى ثلاثة أعوام وسط تأييد له من قبل مناصرين ومطاردة له من قبل السلطات، انتقل بعدها في عام 1840 إلى مدينة برقة حاملاً معه دعوته. وأسس في برقة إمارته التي أطلق منها الدعوة السنوسية في مختلف أنحاء ليبيا . وقد أثارت الدعوة السنوسية السلطات العثمانية التي رأت في انتشار الزوايا على امتداد شواطئ البحر الأبيض المتوسط وصولاً إلى السودان خطراً على سلطتها فتصدت لمحاربتها. وحرضت بعض رجال الدين لتكفيرها. لكن الدعوة السنوسية استمرت في انتشارها. وكان قد تولى أحمد الشريف مهمة نشر الدعوة بعد وفاة محمد علي المهدي السنوسي الذي استمر في المهمة من عام 1859 حتى عام 1902. وعندما توفي المهدي انتقلت القيادة إلى إدريس السنوسي الذي كان لا يزال قاصراً. فتولى المهمة نيابة عنه حتى بلوغه سن الرشد أحمد الشريف السنوسي. وقد واجهت هذا الأخير حربان. الأولى مع الفرنسيين لم تدم طويلاً، ثم مع الإيطاليين. وهي الحرب التي قاد فيها الثوار المجاهدين بشجاعة عمر المختار على امتداد عشرين عاماً انتهت باستشهاده في عام 1931 كما أشرنا إلى ذلك.

وبالتأكيد فإن انتصار الثوار اليوم على حكم الطاغية معمر القذافي قد فتح الباب واسعاً على أفق جديد لليبيا وللشعب الليبي. وسيكون على الشعب الليبي أن يتذكر تاريخ كفاحه القديم وتاريخ الأبطال في ذلك الكفاح، وأن يدخل بعد تلك التجارب التي واجهته في تاريخ جديد مختلف قائم على الحرية والديمقراطية والتعددية والدمج بعقلانية بين التراث والحداثة. وهذا هو التحدي الكبير في الطريق إلى مستقبل مختلف لليبيا الجديدة.